أ. مصطفى بوجملين
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات

المادة: النقد الموضوعاتي
المستوى: الثالثة ليسانس
التخصص: دراسات نقدية

المحاضرة الخامسة
غاستون باشلار
Gaston Bachelard

فيلسوف فرنسي معاصر، اهتم خلال شبابه بالدراسات العلمية والفلسفية، وعيّن بعد الحرب العالمية الأولى أستاذاً للفيزياء والكيمياء .ثم أكمل دراسته الفلسفية عام 1927م فأصبح دكتوراً في الأدب وكتب أطروحته عن (فلسفة العلوم) ثم علّم في كلية (ديجون) عام 1930م ثم في السوربون عام 1940م

ولقد ساهم الناقد بأبحاث نقدية مهمة ضمن مجال النقد الموضوعاتي (التيماتيكي) والمتمثّلة في الآتي:

1- التحليل النفسي للنار

2- الماء والأحلام

3- الهواء وأضغاث الأحلام

4- التراب وأحلام يقظة الإرادة

5- الأرض وأحلام يقظة الاستراحة

6- شعرية الفضاء

7- شعرية حلم اليقظة

لقد مرّ الفيلسوف الفرنسي المعاصر غاستون باشلار (1884- 1962) G. Bachelard بمرحلتين حاسمتين في حياته العلمية: الأولى انصرف فيها إلى دراسة المسائل التي تثيرها طبيعة المعرفة العلمية حيث أكمل دراسته الفلسفية عام 1927. ونال الدكتوراه بأطروحته عن (فلسفة العلوم). فعيّن أستاذاً في (ديجون) 1930، ثم في (السوربون) 1940.

وقد أقام شهرته، في هذه المرحلة، على ثلاثة عشر كتاباً، جمعت بين الكفاءة العلمية، والنفاذ الفلسفي وكان جهده -كأستاذ جامعي- منصرفاً إلى النقد الفلسفي للفكر العلمي، ذي الرؤية العقلانية المتحررة.

أما المرحلة الثانية من حياته العلمية فقد انتقل فيها إلى تلمس (الموضوعات الظاهراتية) في العالم المادي مناقشاً إياها من خلال منظور (الخيال)، متحولاً من دراسة (فلسفة العلم) إلى دراسة (فلسفة الفن والجمال).

ويمكن القول إنّ التحليل الظاهراتي يبحث في (قصدية) الوعي؛ أي أن الوعي يتجه دوما إلى موضوع ما. وقد وظف باشلار ظاهرايته في دراسة (موضوع الخيال)، حيث رأى أنه لا يوجد (موضوع) دون (ذات)، وأنّ وظيفة الظاهراتية ليست في وصف الأشياء كما هي الطبيعة فهذه مهمة عالم الطبيعة وإنما في القدرة على استعادة الدهشة الساذجة حين رؤيتنا لأشياء الطبيعة؛ ذلك أننا حين نحلم فنحن ظاهراتيون دون أن نعلم. وأنّ الموضوع يتحدد من خلال غيابه، ومعايشتنا له. فإذن هناك (موضوع)، و(ذات) واعية، و(حلم) ينشأ بتأثير التقاء الذات بالموضوع.

وهكذا يبدو أن للظاهرة الفنية بعداً موضوعياً وبعداً اجتماعياً، بالإضافة إلى البعد الظاهراتي. ومن هنا محاولة باشلار إلقاء الأضواء على هذه الأبعاد جميعاً. وخاصة مسألة تعددية المناهج النقدية التي اعتمدها، وفتح أبوابها للدارسين بعده، حتى ليعد أباً لكثير من النقاد أمثال جورج بوليه، وشارل مورون، وجان ستاروبنسكي ولوسيان غولدمان، ورولان بارت،وغيرهم....

ولقد درس باشلار (الصورة الشعرية)، واعتبرها بروزا مفاجئا على سطح النفس. واتخذ منها موقفاً موضوعيا قدر الإمكان، مستخلصاً إياها من العناصر المادية الأربعة (الماء، والهواء والتراب، والنار)، وهي العناصر الأساسية في نظريات نشوء الكون.

ثم بدا له أنّ الصورة المدروسة من خلال الذات لا يمكن فهم جوهرها من خلال الإحالة إلى الذات فقط، لأنّ الظاهراتية تستطيع استعادة ذاتية الصورة باعتبارها تنويعية لا تكوينية.

ولذلك، لابدّ من إسهام (الذات =الروح)، و(العلم =العقل) في دراسة ظاهرة (الصورة الشعرية)؛لأنّ الذات تمتلك داخلية ليست انعكاساً للعالم الخارجي. بل حالة نفسية تمتزج بالحلم، ويستريح فيها العقل فالروح يقظة دون توتر. والعقل يضع لها المشاريع الأولية. ومن هنا، فإنّ باشلار يميّز بين (القارئ) العادي و(الناقد) الأدبي، فيرى أن الأول يكتفي بالاستمتاع بما يقرأ، بينما الثاني يتجاوز ذلك إلى معرفة كل شيء والإحاطة بكل شيء؛ بل ومحاولة الخلق مع المبدع نفسه.

وإنّ شغف باشلار بالتحليل النفسي، كعلم جديد، ومعرفته بفرويد، ويونغ. جعلاه يسلّم بقراءة نفسية للأثر الأدبي، ويعتبرها وسيلة نموذجية لمعرفة الكاتب. وقد حاول تجديد النقد الأدبي عن طريق إعادة الاعتبار (للخيال المادي) الذي ينفذ إلى عناصر الكون، فأقام منهجه النقدي على (الحلم). ولم يقيّد نفسه بمنهج نقدي واحد، واعتبر (الصورة الشعرية) بثا واعيا تقوم به نماذج وأنماط أصلية لا شعورية فتكسب (دلالة) جديدة قادرة على إثارة الأحلام وتكتسب الصورة دلالة مزدوجة: فتعني شيئاً آخ وتثير أحلاماً بصورة مختلفة؛ ذلك أن الخيال والأحلام والفكر هي التي تتكلم، من خلال الأدب، الذي يروي رغبة إنسانية.

وقد طبّق باشلار منهجه الصوري في كتابه (الماء والأحلام) على خيال (إدغار ألن بو)، فوجد أنّ صورة (الماء) هي التي تسوده، أو بصورة أدق ماء خاص، ماء ثقيل أكثر عمقاً، وأكثر ركودا من جميع المياه الراكدة العميقة. إنه عند بو الجوهر. الجوهر الأم.

وهكذا يرغب الناقد في أن يكون الناقد ذاتياً وموضوعياً في آن. وأنه ينبغي أن يتمّ فهم الأدب عن طريق (الصور الأدبية). ذلك أن أصالة الكاتب إنما تقاس بجدّة صوره، وأن يحلم الناقد مع الآثار الأدبية، لا أن يقتصر على رؤيتها فقط. مؤكداً عدم كفاية النقد الكلاسي الذي يردّ الإبداع إلى ما هو شعوري فقط في الإنسان، والذي يعدّ (الصورة) زمنية، أو نسخة عن الواقع فحسب، ناسيا (الوظيفة الشعرية) للصورة في إعطاء شكل جديد للعالم.

ويؤكد الناقد وجوب ربط (الحياة الخاصة للصور) بالنماذج (الأصلية) التي يكتشفها التحليل النفسي. وعند ذلك تبدو الصور المتخيلة (تساميات) لهذه (النماذج) الأصلية، وليست إعادة إنتاج للواقع. ومن هنا رغبته في أن يكون الناقد يقظاً إلى أقصى حدود اليقظة، وأن يقرأ الأدب بإمعان وأن يحصر همّه، لا في (عقدة) الكتاب، بل في البحث عن (الصور) الجديدة القادرة على تجديد (النماذج الأصلية اللاشعورية. لأنها هي وحدها العلامة على قدرة (الخيال) الخلاقة. وبهذا يبدو الناقد حالما مع الآثار الأدبية أكثر منه ناقدا يصف هذه الآثار.

وتحت تأثير التحليل النفسي والاهتمام بالعناصر المادية الأربعة، وضع باشلار كتبه: التحليل النفسي للنار 1938، الماء والأحلام 1942، الهواء والأوهام 1944، الأرض وهواجس الإرادة 1948، الأرض وحلم الراحة ولكنه في مرحلة تالية وضع مؤلفات تنتمي إلى (الظاهراتية) أكثر من انتمائها إلى التحليل النفسي، من مثل: شاعرية الفضاء 1957 وشاعرية أحلام اليقظة 1961. وفيها يدرس (الصورة الأدبية) لا على أسس نفسية لا شعورية، كما كان يفعل سابقاً بل على أسس (ظاهراتية)؛ إذ لم يعد العمل الأدبي - عنده- يمتلك ماضياً، أو علاقة سببية بين (صوره) والنماذج الأصلية الكامنة في اللاشعور، بل أصبحت دراسة (الصورة والخيال) عنده تعني دراسة (ظاهرة الصورة) عند انبثاقها، باعتبارها نتاجاً مباشراً لكيان الإنسان في واقعه.